

## إلى يسرى الحبيبة

كلماتٌ مباشرةٌ خاليةٌ من التزويق والخطابية. منذ اليوم الأوّل الذي تعارفنا فيه منذ أكثر من نصف قرن. أنا الحديثة العهد بالتعليم ، في المدرسة النموذجية التابعة لدار المعلمين في النبطية، وأنت الطالبة الأكثر تفوقًا بين طلاب دار المعلمين، والأجملُ بين جميلات الدار. نما الودّ بيننا، ربّما لأنّ كلّنا وجدنا في الأخرى الوجهَ الذي نريده ولا نريده، بعدها شرّقنا وغربّنا، وتباعدت مساراتنا، ومن دون سابق إنذار كان لنا لقاءٌ بعد سنواتٍ امتدادًا للقاء الأوّل؛ كأنّ لا فترة ولا انقطاع.

كنتِ لا تزالين تبحثين كيومك الأوّل عن المعاني الكامنة وراء الأشياء والأحداث والخيبات...

في أحلك الظروف رأيتك، ابنتي وأمّي ومعلّمتي وتلميذتي، كيف تجمّعت المتناقضات؟ لا أدري، جلّ ما أعرفه أنّي أتهيب الكتابة لكِ وعنك..

يوم مناقشة كتابك "الحريم اللغوي" في صور، تعرفين كم استغرقني الوقت حتّى تمكّنت من كتابة تينيك الصفحتين.. حين عرفتُ من ابنتي أنّ كتابك الجديد "صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر" قد صدر، حالت ابنتي مباشرة أو غير مباشرة بيني وبين قراءته، قالت "يسرى كتبت عن أمّها وأنتِ تكتبين عن أمك ستتاثرين بما كتبت، أجلي القراءة"، لم أوّجّلها طويلًا، لم أستطع ذلك، قرأتك أوّل مرّة حابسةً أنفاسي، لم اكن أقرأ - قلتُ لكِ ذلك- كنتُ أسمعك، ليس تخيلاً؛ كنت أسمعك تحكين لي . أقرأ بعيني، وصوتك في أذني، قسّمًا كنت أسمع صوتك يعلو ويخفّ، منغمًا حينًا ، وحينًا كأنك تشرّقين بدموعك، تحكين لتتخفّفي من ثقلٍ أرهقك حملُهُ كلّ هذه السنين..

وأخيلني أسألك على من تبكين؟ على أمّ أحببتها حضنًا دافئًا، ووليّة معصومة، أو إلهة وثنيّة تتضرّعين إليها حينًا، وتكفرين بها أحيانًا .. أم تبكين عليّ ، أم على ذاتك تقرّعينها لأنّها لم تلتزم بما كنتِ تظنّين أنّك إن فعلته تتحلّلين من الصّورة النمطية لشهيدات الأمومة، كي لا تكوني صورةً من أمك . لحظة أو لحظات قرّرت أن تكوني النقيضة لها، اكتشفت أنّك لم تكونيها وإنما صرّتها، وأنتِ تتوهمين أنّك تتحدّينها وتتحدّين الظروف التي حكمت عليها بتحمل ما لا تحتمله الجبال..

كان صوتك في أذني صادقًا غير مخاتلٍ ولا موارب، يُسمعي بوحك راقياً، مهذبًا، وعتابك حانيًا عليها ، وتقريعك قاسيًا على ذاتك بلغة أقلّ ما يُقال عنها إنّها معجزة.

يسرى..

يوم سألتني على الملأ في المقابلة المتلفزة عن الأمومة تملّصت من الكلام عليها وظيفّة هي الأصبعب والأشقّ، تهرّبت كي لا أحكي عن الصّربية الفادحة التي حملتنيها تلك الوظيفة وجعلت كلّ ما يمكن أن يُعدّ ربحاً في هذه الحياة باطلاً وقبض الرّيح في نظري.

نعم، الأمومة وظيفّة، مهنة، لا تحتاج الى الدّربة، بل إلى الحبّ، لذلك هي مُضنية للواتي يفضن حبّاً وهنّ يتأفّفن، للحرائر الحرّات الصّادق بوحهنّ مثلك، أنتِ يا من غلب عقلها الباطنيّ وعيها الفجّ (والقول لك) ، والتي صرفت عمرها بلا حساب وهي تقيض أمومةً تهبها لجميع النّاس..

يسرى أنتِ هربت منها (من أمك ) إليها ، شاكستها وخالفتها، حاكمتِ نفسك لما أردتِ محاكمتها، حاولتِ أن لا تكوني نسخةً مكررة عنها لكنك صرتيها..

يسرى ...

أنتِ اعترفتِ أنّك كرّرت الحكاية، عانيتِ وأكثرتِ ووقعتِ في ما هربتِ منه، كنتِ وليّة كما كانت، ولم تنجح محاولتك للهرب من ضرائب الوظيفة المفروضة، عشيتها بحبّ وصبرٍ ، ومن دون سابق تصوّر وتصميم منك أردتِ التنزّه في الجنّة التي وُعدتِ أمك بها.

الأمومة والأبوة والتّعليم والاستشهاد والإيمان والنزاهة وكلّ ما هو جميلٌ وراقٍ في هذه الحياة هو فيض الحبّ.

سلامي لكِ.

دلال عباس

النبطيّة في ٢٦ تموز ٢٠٢٠